

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

محمد حسن يزبك

هذا الموضوع له أبعاده ولا يمكن أن تتفلسف الحكمة الإلهية لعبادة من أهم العبادات، بل هي الشرعية على حدّ وصف بعض الروايات لها، ولكنني اقتنص بعض معالم تلك الفلسفة من قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾^(١).

القيام وما يعنيه أن دور الإنسان في الحياة الحركة المستمرة مع حركة الكون؛ لأنه إذا ما توقفت حركة الكون انتهى كلُّ شيء، وجميل الربط بين الإنسان والكون من خلال الحركة؛ لأنّ مهمّة الإنسان البناء والإعمار، وهذا يستلزم الحركة المتجدّدة، لكي لا يتساوى يوماً الإنسان فيكون مغبوناً فضلاً عن أن يتروى غده فيكون ملعوناً على حدّ فلسفة أمير البيان والبلاغة ومرجع الفلسفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

قيام الناس الذي رتب عليه ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام﴾ لم يكن هذا القيام إلاّ عظيماً يتجاوز بعظمته حدود ما رتب عليه لأنه لا يحفظ بدونه. وهذه

العظمة نتلمسها من القائد الأوّل الذي نهض في وجه الأصنام والصنمية مكسراً ومعلناً عن أبعاد دعوته المقدّسة وقد نسجها القرآن الكريم بأروع بيان: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين﴾ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ قالوا أجبنا بالحقّ أم أنت من اللاعبين﴾ قال بل ربكم ربّ السماوات والأرض الذي فطرهنّ وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين﴾ فجعلهم جذاباً إلاّ كبيراً لهم لعلّهم إليه يَرْجِعُونَ﴾ قالوا مَنْ فَعَلَ هذا بآلهتنا إنّهُ لمن الظالمين﴾ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون﴾ قالوا أنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظالمون﴾ ثمّ نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إنّ كنتم فاعلين﴾^(٢)

هذه الآيات عرضتها بهذه الكيفية؛ ليعطى مفهوم القيام وزنه ومعناه وحقيقته

وما بعد القرآن من حقيقة .

فالآيات وضحت أنّ القيام دعوة وثورة ومواجهة للظلم والانحراف والعصبيّة والتقاليد البالية، والمتأمل يدرك حقيقة الثورة أنّها ثورة من أجل التوحيد وربط الإنسان بخالقه، وتطهير العقول من التبعية العمياء والابتعاد بها عن منطق أننا وجدنا الأمر كذلك فمضينا حيث تارح الآباء والأجداد والتقاليد والعادات .

أترى نترك ما كان عليه الآباء؟ نعم صرخة الحق والعدل والضمير لم توجد أيها الإنسان لتلغي دور العقل متذرعاً وهكذا وجدت الآباء ولعلّهم كانوا في ضلال مبين، وهل من ضلال أوضح من عبادة الأصنام واعتبارها الإله؟ الإنسان الذي

كرّم بالعقل وسخر له كلّ شيء فينحدر إلى أسفل ما يتصوّر؛ ليتخذ من الصنم معبوداً وخالقاً أو ليقربه إلى الخالق والمعبود، ولا يعرف الخالق ما قيمة هذا الحجر والوثن أولست أنت الصانع له؟ وهل ينفع أو يضر؟

كان دور نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يصحح العقيدة وينفض عنها غبار الوثنية والصنمية والتحجّر، دعاهم والحق والهدى سبيله، تحرّكت العقول أجتتنا بالحق؟ لم نسمع بهذا في الملة الأولى، وإذا لم تكن الأصنام هي الآلهة؟ فمن الإله «قال بل ربكم ربّ السماوات والأرض الذي فطرهن»^(٣).

ومن القيام الذي نهض به خليل الرحمن عليه السلام نفهم علاقة الحج بإبراهيم عليه السلام والبيت والاتخاذ من مقامه مصلى ومعنى تطهير البيت للطائفين والركع السجود، وفلسفة هذا التشريع، وبينتي على ركيزتين أساسيتين:

الأولى: التوحيد.

الثانية: علاقة الشريعة الإسلامية بالشرائع السابقة واستمراريتها بالحفاظ على الركيزة الأولى.

هو دعوة الأنبياء جميعاً لأهمهم «ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت»^(٤).

وتجلى الصراع مع الشرك والوثنية بعد الطوفان بشخص القائد الأمة الذي نعتته القرآن بذلك «إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين»^(٥). والنبي محمد ﷺ الذي جاء قومه بخير الدنيا والآخرة واختصر عليهم كلّ شيء: «أنا دعوة أبيكم إبراهيم عليه السلام قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا». إنه النبي والرسول الذي ولد بمكة وترعرع فيها، وساءه الكثير من المشاهد، وأزعجه ما كان عليه الناس في ذلك الوقت، يتنافسون على عبادة الأصنام، ويتسابقون على تعليق آهتهم في الكعبة وجدرانها، ولم يبق من الإبراهيمية إلا بصيص أمل ونور يلعب من بين ظلمات الشرك. النور الذي استقر بالنبي محمد ﷺ بعدما تناقله الأجداد

والأممات من الأصلاب الطاهرة والأرحام المطهرة من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وكان لهذا النور من العظمة أن كشح ظلام الجاهلية وليل الشرك الدامس بفجر الإسلام المشرق، الذي ألقى بجيوطه النورانية على العالم فهرب الشيطان وصُعق وتهاوت معه الأصنام وتكسرت وسكت نفس الشرك واندرثر، وتعالى صوت الله أكبر من حنجرة بلال الحبشي على مأذنة الفجر الساطع، وردد الكون لا كبير إلا الله، وتهلّل وجه الدنيا وتلألأ فرحاً وابتساماً بكلمة التوحيد...

والحجّ الذي كان أحد الأركان الأساسية للإسلام، «بني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية» فقد جمع بين العبادة البدنية والمالية وفيه من الكدح ما فيه، وكانت فلسفته بقيام الناس جميعاً من خلال مؤتمرهم الشعبي العام الذي يلتقون فيه في الأرض المقدّسة، ليحجّوا مع نبيهم حجّته ويقفوا مواقفه معلنين معه النداء «لا إله إلا الله» مقتلعين من أنفسهم كلّ ما سواه لأنه الباطل، متأسين بطهارة ونقاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته متّخذين من أنفاسه وتعاليمه الهدى يتذكّرونه ويذكرونه مع ذكر الله؛ لأنه الدليل الصادق والبار الوفي والتقي المعلم، يستعرضون وهم يؤدّون الفريضة كلماته العذبة الرقيقة وهي تدغدغ المشاعر والأحاسيس: «إنّ حرمة المسلم أعظم من حرمة الشهر الحرام وعرفات والحرم والبيت» فتنبعث انتفاضة وثورة في داخل الإنسان وهو يتألّم من تقصيره بهذا الحقّ. الله أكبر أهكذا حرمة المسلم؟ فأين أنا من حقوق المسلمين وهو يرمقهم ببصره يتحولقون حول البيت ويهرولون وإلى الجبل يمشون؟ مشهد من مشاهد يوم القيامة، ولا يكادُ يصدق الأسود والأبيض والعربي والأعجمي والألسن مختلفة واللغات متعدّدة سبحانه ياربّ الكلّ منك وإليك وأنت الغفور الرحيم.

أدركت فلسفة الحجّ بكلمة واحدة من خلال هذه المناظر وأداء المناسك (كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة) سبحانه يارب لو التزمنا بذلك وأدّينا الحق الذي اعتبره رسولك أعظم من كلّ شيء حقّ المسلم، فأين كانت أمّتنا؟ فهل كُنّا نعاني



من الفرقة والتمزق والضياع...؟! ألسنا جميعاً نقف مع الرسول ﷺ وننطلق معه على الغيب نستحضر ذلك الماضي فزرى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بعد أبينا آدم عليه السلام في هذه الأماكن يؤدّي المناسك ويرمي الشيطان ويقدم القربان؟ وأي قربان؟! نبي الله إسماعيل عليه السلام وتذكّر التسليم والصدق والإخلاص بالطاعة ونحن نقرأ في سورة الصافات ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ فلما اسلما وتلّه للجبين* وناديناه أن يا إبراهيم* قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين* إن هذا لهو البلاء المبين* وفديناه بذبح عظيم﴾^(٦).

سبحانك ربّي أنت الخالق وأنت المشرّع، فالرسالة واحدة والرسول ﷺ يقول: «مثلي ومثل من تقدمني من الأنبياء كمثل من قبل ولم يبق إلا موضعة لبنة وأنا تلك اللبنة»..

والحجّ من أهم العبادات التي تذكّرنا من أهم العبادات التي لا ندرك علّة تشريعها، وهرولة هائل، والرسالة الإلهية التي لا تتبدّل ولا تتغير، والمناسك.

فالضرورة قاضية من أهم العبادات التي لا ندرك علّة تشريعها، وهرولة هائل، والمناسك. التوحيد وربط الرسالة الإلهية بالرسالة الإلهية التي لا تتبدّل ولا تتغير، والمناسك. إلى انطلاقة المحمّدية ﷺ التي لا تتبدّل ولا تتغير، والمناسك. بلغها خليفة الرسول ﷺ الإمام عليّ عليه السلام الذي لا تتبدّل ولا تتغير، والمناسك. الله ورسوله إلى الناس يوحى إليهم ما يريدون، والمناسك. ورسوله﴾^(٧) وإذا لم يؤدّ الحجّ هذا الأمر، والمناسك. نعجب أن يكون وضع المسلمين على المناسك. والحجيج يتدافعون إلى بيت الله الحرام، والمناسك. قلوبهم، لم يتبرأوا من المشركين، ولم يلتفتوا إلى هذه الفريضة العبادية السياسية،

ولم يهتموا بالجانب الآخر الذي لا يتم الجانب الأول بدونه ، وفهمنا ذلك البعد لهذه الفريضة من خطبة الرسول ﷺ في عرفة وغدير خم ...
ونحن نستعرض هذا الواقع الأليم نتذكر الإمام الخميني رحمه الله قائد الأمة الإسلامية وصانع مجدها وعزّها في هذا العصر كيف نظر إلى الفرائض ، فقال عن الجمعة: «العبادية السياسية» والحج: «فريضة عبادية سياسية» والشبه كبير بين الجمعة والحج ، والقاسم المشترك اجتماع الناس ، والاستفادة من هذا الاجتماع ، وتذكير الأمة بكل ما يعانیه أبناءها ، وإطلاع الشعب على كل مجريات الأمور ، ومن هذه المواقف تحدّد الخطوط السياسية للأمة من حيث العلاقات والمودّة والموالاتة والبغضاء والمعاداة ، والحج أهمّ لأنّه مؤتمر عالمي جامع لكل مؤتمرات الجمعات في مكان واحد . فلا حجّ بدون البراءة فكيف يجتمع حبّ الله مع حبّ أعدائه؟! وكيف يكون هذا القلب محطّة للعشق الإلهي مع استيلاء الشيطان عليه؟! نحن اليوم - وبفضل الإمام الخميني - نرى أنفسنا نعود إلى الحجّ المحمّدي ﷺ الإبراهيمي ، ونرفع راية البراءة من المشركين ، ونعلنها صرخة مدوّية في وجه الشيطان الأكبر وأذنابه . وما هذا إلاّ تعبير عن إعطاء هذه الفريضة بُعداً الحقيقي؛ ليطلّع المسلمون على أوضاعهم عن كثب ونفتنح جميعاً بضرورة الأمة الموحّدة ، ولا خلاص لهذه الأمة من الضياع إلاّ بالعمل الجاد من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة .

فالمسلمون اليوم مدعوون للتأمّل بواقعهم ومصيرهم وعليهم أن يحافظوا على هذه الصحوّة الإسلامية لتنمو وتكبر ، والسعي الدؤوب للوصول إلى جذور الوحدة الإسلامية ، التي هي الرّد العملي والمباشر على كلّ مخططات الاستكبار ، والصاعقة في وجه الشيطان الأكبر أمريكا والأذنان ، والتي تمنع من تحقّق النظام الدولي المتفرعن على حساب المسلمين والشعوب المستضعفة؛ لأنّ مؤشرات هذا النظام الدولي الموهوم أنه محكوم لمصالح الصهيونية والصليبية العالمية والمؤسسات

الدولية بحسب الممارسات العملية، محكومة كلها لهذه الإرادة فلا شيء خارج قبضة الطاغوت إلا الإسلام.

أيها المسلمون: عودوا إلى إسلامكم من خلال حجكم الإبراهيمي المحمدي ﷺ، وهو ما نادى به السيد الإمام، ورفضوا الشرك والاستعانة بغير الله تعالى واعتمدوا على قدراتكم وطاقاتكم متوكلين على الله تعالى رافضين القوى الطاغية والظالمة والحلول الاستسلامية المهينة وفرض هيمنة النظام الدولي الجديد (نظام المحميات) بأساليبه البشعة وأنيابه الكاسرة.

من الحج يجب أن يتخرج الثوار المجاهدون الذين يلبون نداء العراق الجريح النازف عراق الإسلام الذي قدّم الآلاف من الشهداء المظلومين وعلى رأسهم المرجع الكبير والمفكر الإسلامي السيد محمد باقر الصدر، على مذبح الحق ضد أعتى طاغية يتحكّم بمصيره، ونداء البوسنيين والهرسك وسرايفو الذين يواجهون عصابات الصهيونية والصليبية المتمثل مفتاحها بالصريبيين، وفلسطين التي طال عذابها وأوحش ليلها كلّ عفيفة وحرّ وطفل حتى تفجّرت بانتفاضة إسلامية عارمة، حوّل فيها الطفل الحجر إلى قنبلة والمقلاع إلى مدفع والخنجر إلى قاذف، والقبضات والعصي إلى غضب إلهي. وكشمير التي تسجّل بدمائها دوماً الوفاء للإسلام في مواجهة وثنية القرن العشرين وهجمته، والأقليات المسلمة في جمهوريات الاتحاد السوفياتي سابقاً الذين يعانون الكثير من الوضع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي، والشيشان والمجازر التي يرتكبها الجيش الأحمر فيها. والجزائر وتونس ومصر الذين يستنهضون هم المسلمين ليرفعوا كابوس الأنظمة البوليسية الظالمة عن رقابهم.

ولبنان الذي قدّم المزيد من الشهداء مجاهدين وقادة من شيخ المقاومة راغب حرب إلى شيخ الأسرى عبد الكريم عبيد إلى سيدّ شهداء المقاومة الإسلامية السيد عبّاس الموسوي إلى كلّ الشهداء الذين سقطوا من أجل تحرير لبنان

وفلسطين والأمة من الكيان الغاصب الغدّة السرطانية إسرائيلية ومن مخطّطات الشيطان الأكبر أمريكا.

من الحجّ المحمّدي ﷺ تخرج الأمة بجوّ الألفة والمحبة والمناصرة تحت راية قيادة إسلامية موحّدة، وإنّه عصر الإسلام وليس عصر الشيطان الأكبر أمريكا والنظام الدولي الفرعوني الموهوم إنّها الراية بيد القائد الإمام الخامنّي (دام ظلّه) ستتوحد تحت هذه الراية ممهّدين لدولة الإسلام الكبرى التي تشرق أنوارها بالعدالة والمساواة والاستقامة بنور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه المبارك).

الهوامش :

- (١) المائة : ٩٧.
- (٢) الأنبياء : ٥٢ - ٦٨.
- (٣) الأنبياء : ٥٦.
- (٤) النحل : ٣٦.
- (٥) النحل : ١٢٠.
- (٦) الصفات : ١٠٢.
- (٧) التوبة : ٣.